القدوة والقائد

الكلمة التى ألقاها الزميل يوسف الشايجى فى احتفال البيت بعيد المولد النبوى الشريف

اجتمع أهل البيت يتجاذبون أطراف الحديث فى أمر شغل بالهم ، وقض عليهم راحتهم واطمئنانهم ، وهم بين اليأس والرجاء ، وبين السعادة والشقاء ، وكانت آمنة بنت وهب أشدهم قلقا وحيرة لأنها تنتظر كما ينتظر الجميع أوبة زوجها عبدالله من الشام ، وهاهى ذى تترقبه بفارغ الصبر وقد طال بها الانتظار ، وانقطعت عنها الأخبار . وهى لا تعرف ماذا تفعل إنها تحس فى قرارة نفسها بشىء جميل يؤنسها ويحزنها فى آن واحد ، تريد أن تزف إلى زوجها بشرى حملها بولده ، هذه البشرى التى لاشك أنها ستثلج فؤاده ، وتملأ قلبه سروراً وسعادة ولكن أين الزوج الحبيب ومتى يعود؟ لاشك أنه قد ظهر فى الأفق مالم يتوقع وحدث ماليس بالحسبان وهذا هو الطارق يحمل خبر وفاته فى يثرب فزاغ البصر وجل الخطب وانقطع الأمل ، ووقع هذا الخبر موقع الصاعقة على آمنة ، فانطوت على نفسها مكلومة القلب مهيضة الجناح ، وكل عزائها فى هذا الجنين الذى لا تشعر منه ما يشعر به النسوة من آلام الحمل ومتاعبه ، وفى ساعة أرخى الليل فيها سدوله ، وشمل الكون السكون والهدوء أشرق ذلك الطفل الذى وجدت فيه العزاء عمن فارقته .

خرج هذا الطفل إلى عالم الوجود يتيم الأب ، ترأمه أمه آمنة ، ويكلأه جده عبد المطلب ، وترعاه مرضعته حليمة . وعاش فى البادية فكان لها أثر بعيد فى تكوينه الشخصى ، ومضت على هذه الحياة الوادعة ست سنوات فجع بعدها الصبى بموت أمه آمنة فأصبح يعانى آلام الوحدة واليتم ، ولكن الله الذى حرمه عطف الأب وحنان الأم ملأ قلوباً بالرحمة والرأفة عليه ، وهذا جده عبد المطلب يحنو عليه ويصبح له أباً رحيما ، بيد أن هذا العطف انقطع عنه فى السنة التاسعة من عمره بعد موت جده وكان من الطبيعى أن يزداد شعوره باليتم والعزلة ولكنه وجد فى عمه أبى طالب نعم الولى ونعم النصير .

هكذا شب محمد فى هذه الحياة الشاقة المتقلبة ، وزاول فى حداثته رعى الغنم فزاده هذا العمل فهما وسعيا ثم مارس التجارة فكسب منها خبرة واسعة وربحاً طائلا ، وحمل رسالة ربه فبات فى سبيلها مضطهداً معذباً . ثم قاد الجيوش فخرج من المعارك ظافراً منتصراً .

هذا هو محمد نشأ فى ضيق من العيش وحرمان من الأبوين ثم تقبل عليه الدنيا بخيرها ونعيمها ويتزوج من امرأة ذات منصب وجمال على جانب واسع من الثروة والذكاء فيزهد فى الدنيا ويعرف أن المادة ليست كل شىء ، فما وضع يده على تلك الثروة الطائلة واستسلم للراحة المادية ، ولم يلج مجالس الحى حيث اللهو والمجون ولكنه نأى عن مكة إلى غار حراء يفكر فى هذه الحياة الزائلة ، ويتأمل فى أمره وخالقه حتى أذن الله له أن يبصر الناس بالحق ويهديهم سواء السبيل ، فخرج إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فلم يجد منهم إلا نفوراً وعصياناً ، ولم يزدهم دعاؤه إلا تعنتاً واستكباراً . ولكن محمداً لم ييأس من دعوتهم ولم يتسلل إليه الملل والضجر من هدايتهم ، ولم يقابل الأذى بالأذى والعدوان بمثله ، بل وجد فى موقفهم هذا حافزاً قوياً يصقل وجدانه ويشحذ قريحته ويرهف حسه فقال قولته المشهورة (اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون)

هذا هو النبى محمد الذى ظهر فى جو مكفهر ملىء بالعوائق والصعاب ، محفوف بالأحداث والخطوب ، فألف بين قلوب تملؤها الغلظة والحقد على بعضها البعض ، وقضى على أصنام كانت تعبد وتذبح لها القرابين فى المواسم والأعياد وأودع العالم شريعة الكمال والخلود ، هذه الشريعة التى تعالج على أهدى سبيل كثيراً من المسائل العلمية والاجتماعية والتشريعية ، وقضى على الفروق الجنسية فالناس فى الدين سواء ، واسمعوا المفكر الأمريكى فاندنبرغ وهو يصف حالة الرقيق فى الإسلام لاحالة الجنس

الأسود الذى يتمتع بكامل حقوقه الفردية والاجتماعية . فيقول : « لقد وضع للرقيق فى الإسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه الرسول وأتباعه من الشعور الإنسانى النبيل ، ففيها تجد من محامد الاسلام ما يناقض كل المناقصة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تقود مواكب الحضارة فى الحياة » .

هذه تعاليم الرسول الكريم الذى كتب فى حياته كثير من العرب والافرنج ، ودون عنه فى كتب التاريخ كثير من الشرقيين والمستشرقين ، منوهين بإنسانيته وديانته وأصول تعاليمه التى عينت للناس حقوقهم ووضعت لهم واجباتهم ، فلا غرو إذا كان الجميع يشيد بعظمته وعبقريته لأن دعوته صدرت من مكان يسمو عن متناول إدراكنا ، وتعاليمه جاءت من مصدر أرفع من أن تدركه أفهامنا .

وخليق بالأمة العربية وهى تعانى فى هذه الظروف العصيبة أخطر محنة حلت بها أن تستمد من حياة رسولها العظيم معنى الذود والكفاح ، وقمين بها أن تحمل المشاعل التى حملها وتمزق حجب الظلام لينبثق فجر السلام وجدير بها أن تناضل عن الوطن الجريح بالمال والعتاد والمهج والارواح ، علينا أن لا ننتظر حتى تعصف بنا الحوادث ، ولا نتريث حتى تمزقنا الكوارث ، ولا نترقب حتى تفرق شملنا الأحداث فنضرب كف القدم ونذرف دموع الحسرة والألم حيث لا ينفع الندم ، فالحرية لا تمنح ولا تزجى لأنها ليست صدقة ولكنها تغتصب اغتصابا لأنها حق طبيعى ولا حق لمن لا قوة له ، فعصرنا هذا عصر لا يرى فيه وجه الحق ولا تعرف فيه يد العدالة .

فلنثب وثبة رجل واحد ، ولنذد عن حريتنا ، ولنكافح لنستطيع مسايرة الركب العالى ، ولنعد مجدنا العظيم الحافل بأسمى مظاهر الحضارة والمدنية ولنتبوأ المكان اللائق بنا ، ولنجعل من رسولنا الخالد القدوة والقائد .

ما لقيصر ومالله . . .

الله الذى وهبنا الحياة ، وخلق لنا هذا العالم العريض لنرتع فيه أو نجهد فيه ، هيأ لكل منا مجاله الذى ينشط فيه ، ومحيطه الذى يجاهد فيه ، ونحن فى طلبنا للعيش نسير فى سبيل نختارها لأنفسنا أحياناً وتدفعنا إليها زحمة الحياة أحياناً أخرى . . وكيفما كان ما نبلغه من نجاح فإننا نحس أننا تعبنا فى الوصول إليه ، بالرغم من أن هذا التعب هو سر السعادة التى يتلمسها الإنسان ، لأن النجاح لا يبدو ذا بال إلا إذا استخلص استخلاصاً فى زحمة الحياة ، وهو يبدو أكثر رونقا لنا إذا كنا قد استفردنا بالوصول إليه . .

ولكن من الناس من لا يأبه بسعادة الآخرين أو استقلالهم ، لأن سعادته تتجلى فى أن يدس أنفه فى أعمال الناس ، غير مبال بما يسببه لهم من متاعب ومنغصات .. وأهم صفات هؤلاء أن يدعوا أنهم هم أهل العلم وأن العلم لم يطرق باباً غير بابهم ، فلهم الحق بالتدخل فى شئون الناس بالنقد أحياناً ونصائح أشنع من النقد أحياناً أخرى . والنصيحة الخالصة أمر لا ينكره عاقل ، إلا أن الإخلاص لا يحوم حول هؤلاء ولا يحط فى ديارهم لأن أهم عناصر النصيحة أن تكون الغاية منها نفع المنصوح بينما هى عند هؤلاء ليست إلا وسيلة لإظهار علمهم ببواطن الأمور .

وترى هؤلاء يتصدون لكل مشكلة طارئة فى ثياب العالمين بها الحبيرين بحلها ، ويتناولون فى أحاديثهم كل معضلة محاولين ببعض الألفاظ المحفوظة أن يخدعوا الناس عن جهلهم بها متظاهرين بأنهم من تفاصيلها وأسبابها ونتائجها على علم مكين . . فإذا ما تكشف لبعض الناس زيفهم لم يعوزهم أن يجدوا من غيرهم مرتعاً لهوايتهم يضربون فيه على طبلهم الأجوف لكى يطربوا من صوته وهو يدوى فى أرجاء نفوسهم الخاوية .. ..

يا أصحاب البصائر ، دعوا ما لقيصر لقيصر ومالله لله .

الكويت

ت